المحاضرة الرابعة الرواية العربية المعاصرة و المسكوت عنه

إنّ النّص الرّوائي العربي لا يظهر منه إلاّ الجزء البسيط الظاهر أما الجزء الأعظم فيظلّ غير مرئي. و هو يمثّل نصّا غائبا أو موازيا للنّص الظاهر،و لا يقلّ أهميّة وتأثيرا عن الجزء الظاهر.

و هذا يدفع النّاقد العربي الحديث إلى البحث عن وسيلة تعينه على اكتناه المسكوت عنه أو المغيّب في الخطاب الرّوائي و إعادة إنتاجه و تأويله اعتمادا على فاعلية القراءة المنتجة حسب رأي الناقد "فاضل ثامر".

و يرى هذا الناقد أن دراسة المسكوت عنه في السّرد العربي يحتلّ أهميّة في الإستقصاء النّقدي العربي الحديث ،ذلك لأنّ النّص الإبداعي يجد نفسه في الغالب مضطرّا الصّمت تاركا المزيد من الفراغات ،و الفجوات الصّامتة التي تتطلّب جهدا استثنائيّا فاعلا من جهة التّلقي و القراءة...

و يرجع الكثير من مظاهر الغموض و التشويش و الترميز في الخطاب الرّوائي العربي إلى تزايد المساحات البيضاء في النّص المكتوب.

ففي الزّمن الرّاهن يمكن التّأكيد كما يقول النّاقد السّابق بأنّ تمركز الدّولة الوطنيّة قد مارس عمليّة تغييب الكثير من العناصر في الخطاب و دفعها إلى منطقة العناصر الغيّابيّة ،لذا تزداد نسبة القمع و المسكوت عنه بصورة كبيرة ،كلّما ازدادت مركزيّة حضور القامع في الحياة السياسيّة و الإجتماعيّة و الثقافيّة العربيّة .

فالمسكوت عنه و المغيّب هو في الغالب ناجم عن ضغط القامع السّيّاسي و الاجتماعي معا و يظل القارئ بحاجة ماسّة لنبش السّجلات السّياسيّة و الإجتماعيّة و الثقافيّة لردم الفجوات العميقة الموجودة في سطح النّسيج الرّوائي.

انطلاقا من ذلك يظهر أنّه في وسع النّقد المعاصر أن يعيد فحص الكثير من الخطابات الرّوائية العربيّة الحديثة لينقّب عن تجلّيات المسكوت عنه والمغيّب المقموع ،و ربط كل ذلك بالسّياق الثقافي و التاريخي ،و بالتجربة الحسّية للإبداع لإماطة اللثام عن النصوص الغائبة أو الموازية ، و رؤيا العالم و ايديولجية النص و الدّلالة الثقافية و الفكرية ،و الأشكال والأنساق السّردية التي يتحرّك من خلالها النص و التي تتظافر مع العناصر الحضوريّة و الظاهرية لإعادة تشكيل وتكوين الصورة المشوّهة للخطاب الروائي الأصلي.

و يُعتبر المسكوت عنه تيمة قديمة في تاريخ الكتابة إذ عرفت عند كل الأمم و في شتّى الحضارات العالمية ،و قد عبّرت عن تيمة المسكوت عنه بشتى الأساليب و الفنون واللّغات.

و التّراث العربي مملوء بالصيغ التي تتحاشى بعض الحقائق و تنتمي إلى تيمة المسكوت عنه ، حيث استعملت النّكتة و الشعر و الأخبار التي وردت في الكتب التّراثية كا"البيان والتبيين" ل"الجاحظ"الجزء الرابع" و "عيون الأخبار" ل"إبن قتيبة" و كتاب" الأغاني " ل "الأصفهاني" و "مقامات " " الهمذاني " الشاميّة التي حذفها بعض الدارسين لما احتوته على الكثير من المشاهد و مسكوتات عنها.

و لم تختف هذه التيمة من كتابات العرب في كلّ العصور و تجلّت الآن في الكتابة الروائية أكثر من الشعر.

عمد النقاد إلى حصر تيمات المسكوت عنه في ثلاثة مواضيع : الجنس ، السيّاسة ،و الدّين .

و هي الكلمات الدّالّة على قضايا مسكوت عنها وتناولها الروائيون بأساليب متفاوتة تتراوح بين المباشرة والإيحاء ،و التلميح و التصريح. أحيانا تجتمع هذه المواضيع في نص واحد و لكن بنسب متفاوتة حيث يميل الروائي إلى تكثيف إحداها على حساب الأخرى. و لذلك أسباب أسلوبية ،و منظورات فنّية، و مقصديات موضوعية و ذاتية تصاحب الخطاب الأدبي.

الرواية و توظيف التاريخ للتعبير عن المسكوت عنه :

من المتغيرات و ربما الجديدة التي نرصدها في بعض الروايات ،و يتعلق بالمسكوت عنه الرجوع الى التاريخ القديم و المعاصر لاستلهامه و لكن ليس من خلال التاريخ الرسمي و المُعلن والمكتوب بوصفه تاريخا ،و لكن بالبحث عن المسكوت عنه : سياسة ، و جنسا، و دينا. بوعي معاصر إن لم نقل جديدا.

فالكاتب يملك وعيا ثاقبا حيث يتجلّى هذا الوعي داخل النص الروائي ،لأنّ الماضي لا يُهم في ضوء الماضي ،و انما يدرك في ضوء الحاضر و الرواية تمتلك حق امتلاك الماضي.

و قد حضر المسكوت عنه بكلّ أنواعه : الجنس ، و الدين و السياسة لا كما يتمثّل في التاريخ ،بل كما يُتمثل افتراضا على أرض الواقع حيث يستحضر الروائي التاريخ و يوظفه ضمن بنية جديدة. لأنّ الروائي يملك المبرّر المشروع في أن ينظر فيما لا ينظر إليه التاريخ ،أو لنقل ما يتجاوزه و لا يسجله تماما كما ينظر إلى الواقع فيرى ما قد لا يراه الآخرون يقول "صنع الله إبراهيم" : "لايصف الروائي الواقع بل يستخلص منه ما يعطي الرواية معنى ،وما يتحصّل عليه القارئ من رواية هو غير ما يتحصّل عليه من بحث في التاريخ ،فالرواية تُجمّل له ما يطويه ذلك التاريخ من أسرار و خفايا و عدالة و ظلم ،و هو ما يتعذّر وصفه بالبحث ورصده بالتاريخ".

و فيما يجعل التاريخ القارئ مشرفا على تيار الأحداث ،يجعله السّرد يخوض فيه ،و عند هذه النقطة فلا فائدة من السؤال عن الحصيلة المعرفيّة للسّرد ،بل السؤال عن تشكيله للصّور الذهنية ،عن الأخلاق ،و العادات ،و أنماط العيش و الحرّيات و الكراهيّات...و غير ذلك من الرّكائز الاجتماعية الكبرى التي يقع تمثيلها و ليس تقريرها.

و بما أنّ الروائي ليس مؤرّخا ،و وظيفة هذا تختلف عن وظيفة ذاك فإنّ الصّور الذهنية و هي قوام الكتابة السّردية تعطي لقارئ الرواية ثمّ لكاتبها معنى مصوّرا عن العالم ،أي تعرض عليه أشكالا عديدة للعالم إلى درجة يتكاثر فيها فيصبح مطلعا على عوالم بعدد الروايات التي يقرأها و يكشف مابين سطورها من صور ربما تمثّل مسكوتا عنه لم يذكره التاريخ ،فكلّ عالم سردي يعرض رؤية ما و يبيّن أفعال شخصيات معيّنة و يتركّب بأحداث غير تلك التي يتكوّن بها عالم سردي آخر ،و يعبّر عن حقائق غير مُعبّر عنها في عالم سردي آخر و مسكوتا عنها و لكنها تُدرك بفطنة في عالم سردي ثالث.

فالرواية كتبت التاريخ المعاصر الذي لم يكتبه المؤرخون متطلّعة إلى تاريخ سويّ محتمل ، فالقراءة المجتمعيّة للرواية تقم بتصحيح ما جاء به المؤرّخ و تذكر ما امتنع ذكره ،فالكتابة الروائية "علم التاريخ" الوحيد ،فهي كتابة موضوعية تُسائل ما جرى دون حذف أو إضافة.

و لكن هذا لا يعني أنّ معيار الحكم على العمل الإبداعي هو المضمون فقط بل يجب أن يكون مضمونه متقولبا ضمن الشكل الإبداعي الذي يعطيه هويّته الإبداعية و يحميه من الوقوع في الخطابية و الوعظية ،التي تحوّل النص إلى مقالة إجتماعية أو سياسية جافّة لا روح فيها.

لكن هل مواجهة النص للثالوث المحرّم يجعلها تقع في الرتابة والملل؟

الحقيقة ليست كذلك لأنّ تحدّي هذه الطابوهات و التسلّل إلى قلاعها و تفكيكها و فضحها كانت هي البيئة الطبيعيّة التي منحت الرواية العربية إكسير الحياة و بالتالي منحت السّرد العربي شرعية الحياة و بهذا منحت نفسها عمرا أطول و صلابة أشدّ رغم حنق الغاضبين عليها.

من هذا المنظور نناقش موضوع المواجهة التي تطلقها النصوص الروائية ضدّ الطابوهات التقليدية وتفرعاتها التي لا تنتهي.

الخطاب الروائي السياسي :

تنوّعت الخطابات التي تحاول السيطرة على الفضاء العام للمجتمعات و تقدم تاريخها الخاص بها. فالخطاب الرّسمي يحصي إنجازاته العظيمة ويقول أن الناس و البلاد على ما يُرام و الخطاب المجتمعي الذي ينتقد بوجل إخفاقات السلطة ،و لذا يُمكن أن يكون متواطئا معها في الدّفاع عن الوضع القائم كما هو مقدّسا إياه و محاربا كلّ جديد. لذا فإنّ الرواية هي المرآة التي تكشف الواقع المخبوء ،و نجد الكتابة السياسية و مواضيعها الساخنة تصطدم بالسلطة و بالتالي تتعرض للقمع. و من ثمّ أصبح الروائيون يتوسّلون بالتاريخ السياسي في انتظار تغيُّر في النظام و السلطة المتحكّمة في العقول.

و نجد أن الروايات التي تناولت موضوع السياسة في العالم العربي يكون كتّابها أحد الوجوه الثلاثة : مناصرون ،او مدهنون ،أو ناقدون.

و يكون الكتّاب المناصرين و المدّهنين أكثر أدائية على مسرح الحياة الإبداعية العربية. أمّا الناقدون للسياسة العربية فإنّهم عادة ما يتناولون في أعماهم مواضيع ذات علاقة بتاريخ السياسة و لا يجرؤون على ملامسة مناطق الظلال مباشرة فالعمل الروائي هو الصورة المخفيّة للصورة البرّاقة التي يعطيها الخطاب الرسمي ثمّ يؤرّخها.
و في هذا المجال نتوقف مع تجربة "صنع الله إبراهيم" الكاتب المصري لتكون مثالا حقيقيا لما نناقشه حيث أنّ هذا الكاتب عاش مختلف مسارات الإخفاق العربي ،بدءا بهزيمة 1967 فجاء متنه الروائي تأريخا جماليّا وفق رؤية نقديّة لتجليّات ذلك على الحياة اليوميّة ،و قد استلهم هذا الروائي الفذ الملتزم موضوعات سياسية كبيرة و دسمة حوّلها إلى حيّز الكتابة الروائية مخضعا إياها لقوانينها الخاصّة مثلا رواية "تلك الرائحة" نجدها بيان انتقادي لحكم الرئيس "جمال عبد الناصر" ،و رواية "نجمة أغسطس" كانت عبارة عن رصد لحيثيّات بناء "السدّ العالي"، بينما نجد رواية "بيروت بيروت" تستعيد تفاصيل الحرب الأهلية اللبنانية ،و رواية "برلين 69 " التي يعتبرها "صنع الله إبراهيم" أنضج أعماله. في هذه الرواية استثمر النتائج النفسية المترتبة عن فصل "جدار برلين " ل" برلين الشرقية " عن "برلين الغربية" حقبة الحرب الباردة و مدى اختلاف الظروف المعيشيّة بين نصفيّ البلد الواحد كي يصل إلى انتقاد المآل البيروقراطي للتطبيق الإشتراكي الذي قتل منابع الحياة و تشيّأت معه إنسانية الفرد سواء في "ألمانيا" أو في "مصر". هذه الرواية كانت بمثابة استحضار لذات المكان و

الزمان مع مختلف دلالات الفترة التاريخية فترة الحرب الباردة بين المعسكر الإشتراكي و الرأسمالي و الصّراعات الإعلامية و الإديولوجية .

الخطاب الديني :

النص الروائي هو الصورة الخفيّة "النيجاتيف" للصورة المثالية التي يقدمها الخطاب الديني على رافعة " إنّنا خير أمّة أُخرجت للناس". فمنذ دخل فن الرواية العصر الحديث و النص يواجه تابو او محرّم الدين إلى جانب محرّمي الجنس والسياسة في المجتمع العربي.

حيث كما يقول بعض المفكّرين أن هذه التابوهات تتحكّم في الشعوب العربية و تقمع تطلّعاتهم و تدّعي الدفاع عن المجتمع والمحافظة عليه ،يتحالف السياسي مع رجل الدّين لكبت كلّ إشراقة إبداع فيهم ،لذا نجد نداء المبدع عبر نصه هو نداء الحرّية الدّينية و السياسية و أن يسيطر الفرد على ذاته.

و تكاد الروايات التي تدور حول قضايا متعلّقة بالدّين تلحّ على قضايا المرأة التي يراها بعض المبدعين مظلومة ،و يحاولون الدعوة إلى تحريرها ممّا يرونه عائقا أمامها كالدّين مثلما يجدون أن الفهم الخاطئ للدّين هو العائق الحقيقي أمام التطوّر. و يبدو أنّ أصحاب الأعمال الروائية التي تخوض في موضوع المقدّس والمدنّس في الدّين يصلون إلى حدّ العدائية في أعمالهم أحيانا.

على الكاتب أن يدرك أنّه يكتب عن المجتمع ويتوجّه إليه ومن حقّه أن يكتب ما يشاء ،و لكن عليه ألاّ يكون متطرّفا في أفكاره حتى لا يحدث الفزع لدى القارئ ،فالتّهم الجاهزة و الأحكام المتسرّعة تدمّر المجتمع و الإنسان معا.

و نمثّل للأعمال الروائية الكثيرة التي تناولت موضوع الدّين من وجهة نظر معيّنة برواية "وليمة لأعشاب البحر" أو "نشيد الموت" للروائي "حيدر حيدر".

تدور أحداث هذه الرواية حول مناضل شيوعي "عراقي" هرب إلى "الجزائر" والتقى بمناضلة قديمة تعيش عصر انهيار الثورة و الخراب الذي لحق بالمناضلين. إذن الروائي يعالج حدث معاناة مسرحها "العراق" و "الجزائر" و الثورة هي العنصر المشترك بينهما و الإخفاقات و الأوجاع المشتركة بين البطلين"مهدي جواد" البطل الهارب من مآسي "العراق" و "فلّة" الجزائرية و هما النّاجيّان أو الهاربان من البلد الذي وقع تحت الحكم العسكري. يعالج "حيدر حيدر" غربة الإنسان الذي ضلّ عن الحياة أو أضاعها في عالم الانسان المقهور بالثورات و هل يفقد الإنسان ايمانه في هذه المعاناة....إنها مواضيع ذات أبعاد فلسفية .

و قد أثارت هذه الرواية جدلا و تسبّبت في ردود فعل غاضبة من جانب المسلمين و منعها الأزهر بدعوى الإساءة للإسلام حيث تمثّل في ميزان العقل و الأدب و الإسلام الخروج عن الّدين بعد اتهام مؤلفها بالتطاول على الدّين الإسلامي من خلال بعض العبارات التي جاءت على لسان أبطاله و كانت خارجة عن حدود الدّين خلال مسيرة الأحداث

خطاب الجنس:

أصبح حضور الجنس في الأعمال الروائية عنصرا حيويّا وقد نظر إليه البعض نظرة غريزية جعلت توظيفه عبثيّة حيث يرصد جزئيات العلاقة الحميمة، و يصف جسد المرأة مما جعل بعض

الأعمال تسقط في هاوية الابتذال على الرّغم من شعار الحرّية الذي يدّعيه بعض الروائيين حيث ينفصلون عن قضايا مجتمعهم الكبرى و يحاولون تقليد الآخر في ملء رواياته بالجنس و وصف ممارسته بعيدا عن كلّ القيود.

و قد جعلت بعض الروايات تيمة الجنس ركيزتها فيجعل المرأة متمردة على الأعراف الاجتماعية و أصبح توظيف جسد المرأة عنصر إثارة ممّا جعل الكاتب يتجاوز حدود المجتمع بين مرفوضاته و مقبولاته. و إذا حاولنا أن نؤمن بمقولة إنّ تطوّر الرواية و نضجها يمرّ عبر تفجير المكبوت و فضح المسكوت عنه فإنّه يجب على الروائي أن يواجه السلوكات الخاطئة التي يمارسها المجتمع في السرّ ويوجّه إلى محاربتها.

و يُعتبر الروائي "رشيد بوجدرة" إلى جانب "أمين الزاوي" أمثلة بارزة في هذا المجال فهم من الروائيين الأكثر جرأة في تناول هذه التيمة المسكوت عنه .

ف"أمين الزاوي" من خلال روايته "الملكة" يسائل الوجود العاطفي و الثقافي و الجنسي للجالية الصينية با"الجزائر" و هي الجالية التي يتأكّد حضورها و تأثيرها في سلوكيّات المجتمع الجزائري يوما بعد يوم، رواية "الملكة" هي رواية امرأة جزائرية فاتنة اسمها "سكورا" مطلّقة تجرّ خلفها تجربة زواج مريرة من إطار في مؤسّسة جزائرية كبيرة تسقط في عشق "يوتزوصن" الصيني الذي يعمل في شركة بناء في الجزائر العاصمة و تعيش معه السعادة الكبرى التي افتقدتها مع الجزائري ،فمع هذا الصيني تتحرّر البطلة من كلّ ما عانته من عقد الرجل الجزائري المهيمن بذكورته الخارجية و تجد البطلة في عشيقها الصيني الغريب فضاء لحرّيتها و استعادة إنسانيتها في القول و العاطفة و الجسد.

الرواية تكشف معاناة المرأة أمام رفض المجتمع الجزائري لهذه العلاقة الغرامية و لكن المرأة تواجه بقوّ ة. و قد واجهت رواية "الملكة" ل"أمين الزاوي" نقدا لاذعا لجرأتها حيث قدّم موضوع الجنس بشكل صادم و أدان موقف الشارع والأسرة اتجاه الآخر و اتجاه المرأة.